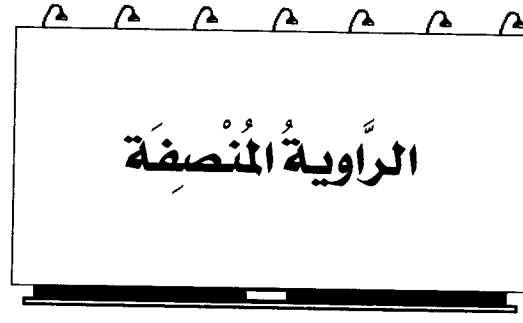
الرَّاوِيةُ المُنْصِفَة

الرَّاوِيةُ المُنْصِفَة

الإنصاف صفة مهمة تقوم عليها حياة البشر، لأنها مرتبطة بالعدل، والعدل هو أساس الحياة، ولا يمكن لمجتمع أن يعيش حياة مستقرةً دون إنصاف يتعامل به الناس بينهم، ولعلَّ أهم أساس من أسس الإنصاف هو الأساس المتمثِّل في توجيه الرسول ﷺ: «أحب لأخيك ما تحب لنفسك»

إن النفوس التي تحب الإنصاف وتطبقه في الحياة نفوسٌ كبيرة تستحق التقدير.

وصاحبة الحرير الأخضر تعرَّضت لمواقف في حياتها - رضي الله عنها - فيها من الألم والحزن ما لا تصمد له إلا النفوس المطمئنة، والقلوب القويَّة بإيمانها.

فهي زوجة أفضل الخلق الذي تصدَّى برسالته الخالدة لأعتى قوى الكفر والإلحاد، والظلم والطغيان، فلابد أن يكون لها نصيب من الأذى مادامت زوجة محمد ﷺ وأحبَّ نسائه إليه؛ لأن الأعداء لا يتركون وسيلة للإيذاء إلا استخدموها، ومن أسوأ وسائل الإيذاء الحرب النفسية المتعلقة بأهل رسول الله ﷺ والمقربين إليه، ولا شك أن عائشة رضي الله عنها هي أبرز من يمكن أن تُوجَّه إليها الإساءة من بين نساء النبي عليه الصلاة والسلام.

وهي صاحبة المواهب المتعدِّدة التي يعرفها الناس، ولا يخلو صاحب موهبة من الحاسدين والحاقدين عليه.

ولو لم يكن من الأذى الذي نال صاحبة الحرير الأخضر إلا حديث الإفك لكفى، فكيف بأنواع الأذى الأخرى التي يأتي في مقدمتها ما تراه من معاناة زوجها عليه الصلاة والسلام في نشر رسالة الخير ودعوة الناس إلى الحق؟!

إن عائشة مثال من أمثلة الإنصاف البشرية الجليلة التي تستحق الإشادة والتقدير.

١- عن هشام بن عروة عن أبيه أن حسان بن ثابت كان ممن أكثر على عائشة - في حديث الإفك - قال: فسَبَبْتُه فقالت: يا ابن أخي، دَعْه، فإنه كان ينافح عن رسول الله ﷺ.

صحيح مسلم بشرح النووي، جـ: ١٦، ص: ٤٦

٢- استأذن حسان بن ثابت على عائشة رضي الله عنها، وقد كُفَّ بصره، فأذنتْ له فدخل عليها فأكرمته، فلما خرج عنها، قيل لها: أما هذا في القوم؟ - يعني المتحدثين في الإفك - قالت: هو الذي يقول:

فإنَّ أبي ووالده وعرضي

لعرض محمد منكم وقاءُ

بهذا البيت يغفر الله له كلَّ ذنب.

السِّمط الثمين للمحب الطبري، تحقيق محمد علي قطب

٣- طافت عائشة بالبيت ثلاثة أَسْبُع، كلَّما طافت سبعاً صلَّتْ بين الباب والحجر حتى أكملت لكل سَبْع ركعتين، ومعها نسوة فذكرن حسان بن ثابت رضي الله عنه فوقَّعْن فيه وسبَبْنَه فقالت: لا تسبُّوه فقد أصابه ما قال الله: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ١٩]، وقد عَمي، وإني لأرجو أن يدخله الله الجنة بكلمات قالهن لمحمد ﷺ حيث يقول لأبي سفيان بن حارث:

هجوتَ محمداً فأجبت عنه
وعند الله في ذاك الجزاءُ
هجوت محمداً بَرَّاً حنيفاً
رسول الله شيمته الوفاء
فإن أبي ووالده وعرضي
لعرض محمدٍ منكم وقاء
أتهجوه ولست له بكفوءٍ
فشرُّكما لخيركما الفداءُ

تاريخ دمشق لابن عساكر جـ: ٤ ص: ١٣٠

٤- عن عبدالرحمن بن شماسة المهري - رحمه الله - قال: أتيت عائشة رضي الله عنها، أسألها عن شيء، فقالت: من أنت؟ فقلت: رجل من أهل مصر، فقالت: كيف كان صاحبكم لكم في

غزاتكم هذه؟ تقصد عمرو بن العاص رضي الله عنه، فقلت: ما نقمنا منه شيئاً، إن كان ليموت للرجل منا البعير فيعطيه البعير، والعبد فيعطيه العبد، ويحتاج إلى النفقة فيعطيه النفقة، فقالت: أما إنه لا يمنعني الذي فعل في محمد - تقصد أخاها محمد بن أبي بكر الذي قتله معاوية بن خديج أحد رجال عمرو بن العاص - أنْ أخبرك ما سمعت من رسول الله ﷺ، سمعته يقول في بيتي هذا: **«اللهم مَن ولي من أمر أمتي شيئاً فشقَّ عليهم فاشقق عليه، ومن وليَ من أمر أمتي شيئاً فرفق بهم فارفق به»**.

صحيح مسلم، باب الإمارة، حديث ١٨٢٨

هكذا تكون مواقف تلميذة مدرسة النبوَّة؛ تلك المدرسة التي تعلِّم القيم والأخلاق الفاضلة، والصدق واليقين، والإخلاص لله عز وجلّ أحسن تعليم وأفضله؛ لأنها تستمد تعليماتها ومناهجها من شرع الله المطهَّر، وكتاب الله العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

إن صاحبة الحرير الأخضر تلميذة ذكيَّة في هذه المدرسة المحمدية، وإذا كان العدل والإنصاف من أهم سمات هذه المدرسة، فإن التلميذة الذكيّة المخلصة ستكون من أفضل من تظهر عليهم تلك السمات من أصحاب محمد ﷺ.

إنها تلميذة ملازمة للمعلِّم في جميع حالاته، وفي إقامته وسفره، وهذه الملازمة من أهم ما يعلِّم القيم والأخلاق، ويحوِّل الأوامر والتشريع إلى واقعٍ معاش.

إنها هي التي أجابت من سألها عن أخلاق الرسول ﷺ بقولها: كان خلقه القرآن، ولا شك أنَّ من كان خلقه القرآن سيكون مثالاً عظيماً للعدل والإنصاف. وهذا العدل والإنصاف منهج قرآني واضح، ولا بأس قبل أن نقف مع أمثلة إنصاف عائشة رضي الله عنها أن نشير إلى دليلٍ قرآني واحدٍ لما نقول.

تعالوا - أيها الأحبة - نتأمل هذه الآيات الثلاث من سورة التوبة: ﴿ الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلاَّ يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ الأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ وَمِنَ الأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: ٩٧ - ٩٩].

يقول ابن كثير في هذه الآيات الثلاث: أخبر تعالى أن في الأعراب كُفَّاراً ومنافقين ومؤمنين.

وفي حديث ابن كثير يتجلَّى موضوع الإنصاف الذي نحن بصدده، فلم يقتصر النصُّ القرآني الكريم على حالة (الكفر أو

النفاق) بل تحدَّث عن القسم الثالث (المؤمن) وأورد أوصافه كاملةً كما أورد أوصاف القسمين السابقين كاملة.

وهذا منهج إسلامي، فنحن لا ننظر إلى أخطاء الإنسان فقط متجاهلين أو متناسين صوابه، وإنما ننصف كلَّ الإنصاف، ونتوخَّى الحقَّ والعدل فيما نقول ونفعل.

وهذا المنهج القراني هو الذي ظهر مطبَّقاً خير تطبيق في حياة الرسول ﷺ وحياة أصحابه الكرام؛ لأنهم جميعاً ينطلقون من قوله تعالى: ﴿ **وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ** ﴾.

هنا يتجلَّى الإنصاف واضحاً، وهذا ما رأيناه فيما رويناه من مواقف الإنصاف عند صاحبة الحرير الأخضر رضي الله تعالى عنها.

كيف ذلك؟

ذكرنا أربعة مواقف؛ ثلاثة منها تتعلَّق بحادثة الإفك وهي من أصعب المواقف التي مرَّت بها صاحبة الحرير الأخضر في حياتها، إن لم تكن أصعبها على الإطلاق.

إنَّ حديث الإفك كان حديث قضيَّة خطيرة، وكان وقعه على قلب عائشة رضي الله عنها وحسِّها قاسياً شديداً.

وإنَّ حديثاً بهذا الحجم، والخطورة لجديرٌ بأن يصرف قلب الإنسان عن كلِّ من خاض فيه صرفاً كاملاً، وخليقٌ بأنْ يغلق أبواب الرِّضا في نفس مَنْ أُوذي به عن كلِّ من شارك فيه بكلمة أو تأييد، ولا شك أن هذا الحديث المؤلم في حالة الإنسان العاديِّ يمكن أن يدعوه إلى الانتقام ممن أسهم فيه قولاً وفعلاً، والإساءة إليه كلَّما حانت الفرصة، ولكنَّ عائشة رضي الله عنها هي تلميذة المدرسة النبويّة التي لا مكان فيها للغلِّ والحقد والانتقام.

أما الموقف الرابع فهو يتعلَّق بمقتل أخي عائشة محمد بن أبي بكر الصديق رضي الله عنه، فهو متعلِّق بقضية أخرى مؤلمة لها مساس بقلب عائشة رضي الله عنها ومشاعرها وموقفها النفسي من رجل كان له دور التأييد لقتل أخيها محمد، تلك القتلة الشنيعة حيث أُحرقت جثَّته في جيفة حمار، مع أنها كانت غاضبة على أخيها بسبب موقفه من عثمان.

هنا في هاتين القضيتين اللتين تتعلَّقان بوجدان صاحبة الحرير الأخضر، ظهر الإنصاف عندها مصوِّراً جوهرها الثمين، ومعدنها الأصيل.

كان حسان بن ثابت رضي الله عنه قد خاض مع الخائضين في حديث الإفك، ولم يستطع أن يملك زمام لسانه حينما جرت ألسنة المنافقين وغير المنافقين بقضية الإفك مجرى التهويل والتكرار

والإعادة، والتأويل والتخمين حتى آذى ذلك قلب أفضل الخلق عليه الصلاة والسلام. لقد علمت عائشة علم اليقين أنَّ حسان بن ثابت قد وقع في هذه الحفرة الخطيرة، كما وقع غيره، ولا شك أنها قد وجدت عليه في نفسها وجداً كبيراً كما وجدت على غيره، ولكنَّ السؤال المهم هنا يقول: هل بقي هذا الشعور الغاضب في نفسها طيلة حياتها؟ المواقف الثلاثة التي ذكرناها سابقاً تؤكد أن عائشة تلميذة المدرسة المحمَّدية أكبر من ذلك، وأصفى قلباً، وأسمى شعوراً وأَنْقى نفساً، وأسلمَ صدراً، فهي في أكثر من موقف تسمع من يدعو على حسان إذا ذكر، ويسبُّه لأنه خاض مع الخائضين في حديث الإفك، وإنما يفعلون ذلك غضباً لها، وإرضاءً لنفسها، ولكنَّ النفس الكبيرة لا تنزل إلى هذا المستوى من إنكار الفضل، والامتناع من الصفح والعفو عن رجلٍ من الصحابة وقع في الخطأ، ثم عوقب عليه، وأعلن التوبة منه.

إنها لا تسكت وهي تسمع من يدعو على حسان ويسبُّه، بل تزجر من سمعتهم، وتمنعهم من ذلك وتؤكد لهم أن لحسان بن ثابت من الفضل، والمواقف الشعرية المنافحة عن الإسلام ونبيِّ الإسلام، ما يمحو آثار ذلك الخطأ، ويخرج حسَّان من دائرة الإثم المعتمة فيه، فالتوبة تجُبُّ ما قبلها، والمواقف الإيجابيَّة لا تُنسَى.

إن عائشة تذكِّرهم بأن حسان هو الذي قال في ردِّه على شعراء المشركين، مخاطباً واحداً منهم:

فـــــإنَّ أبـي ووالـده وعـــــــرضـي
لعـــرض مـــحـــمـــدٍ منكم وقـــاء

وهي تؤكد هذا المعنى بقولها: وإني لأرجو أن يدخله الله الجنَّة بكلماته.

يا لها من نفسٍ مطمئنةٍ بالإيمان، وياله من قلبٍ خافقٍ بحب الخير والإحسان، خالٍ من الحقد والأضغان.

وأحب أن أشير هنا إلى مسألة تؤكد أن الإنصاف والعدل عند عائشة سمة راسخة في نفسها، فهي جزء من طبيعتها، وليست أمراً مصطنعاً، وهي نابعةٌ من منبع الإيمان بالله، وترجيح مصلحة الدّين الإسلامي على كلِّ مصلحة شخصية كبيرة أو صغيرة.

كيف ذلك؟

لو كان رضا عائشة عن حسان ناتجاً من موقف شخصيّ لأشارت إلى ذلك حينما زجرت من دعا عليه وسبَّه، فحسان رضي الله عنه قال قصيدةً عصماء يعتذر فيها ممَّا بدر منه، ويعلن توبته، بل وينكر أن يكون قد خاض في حديث الإفك بالصورة التي نقلت عنه، فلو كانت نظرة عائشةٍ رضي الله عنها نظرةً شخصية لمصلحة شخصية لقالت مدافعة عن حسان:

لا تسبُّوه فقد اعتذر عما بدر منه، وقال فيَّ:

حـــصـــان رزانٌ مـــا تُزَنُّ بـريبـــةٍ

وتصـبح غَـرْثى من لحـوم الغـوافلِ

فـإن كنتُ قـد قُلْتُ الذي قـد ذكـرتمو

فـــلا رفـــعت ســـوطي إليَّ أناملي

لم تذكر عائشة رضي الله عنها هذه الأبيات التي قالها حسان في مدحها ونفى حديث الإفك عنها، مع أنها تعرف ذلك وتعلم أنه من حقِّها إذا ذكرته.

كلاَّ، فإنَّ الأمر عند تلاميذ المدرسة المحمَّدية أكبر من أمور النفس والدنيا، والمصالح الآنيَّة، إنه أمر القرآن الكريم، والدين الإسلامي الحنيف:

لقد رأت عائشة أن الأولى بالذكر في دفاعها عن حسان بن ثابت ما قاله منافحاً عن الرسول ﷺ وعن دين الإسلام، فهو الذي ينتظر منه الأجر، وهو الذي دعا له فيه الرسول ﷺ أن يؤيِّده الله بروح القدس.

والموقف الاخر يتعلَّق بسؤالها الذي وجّهته إلى الرجل المصري عن تعامل القائد الإسلامي الصحابي عمرو بن العاص معهم، توجه السؤال ومازالت حرقتها على قتل أخيها محمد وإحراق جثته تلذِّع قلبها الحنون.

لقد جاء جواب الرجل المصري مشيداً بعمرو بن العاص من حيث رعايته لمصالح الناس ورفقه بهم، وقضاء حاجاتهم، وهنا يظهر الإنصاف العائشيّ المتميِّز.

لو كان الأمر شخصياً لسمعنا منها كلاماً آخر، ولذكرت للرجل المصري شيئاً عن حرقتها لقتل أخيها محمد، حيث ثبت أنها جزعت عليه جزعاً شديداً - برغم أنها كانت قد غضبت منه بسبب موقفه من عثمان - كما أشرنا سابقاً-.

ولكن الأمر أكبر من ذلك كلِّه وأعظم، إنه أمر الدِّين الذي ارتقى بتلك النفوس.

ولذلك تَمَّ الانتصار السريع الحاسم على النفس وميولها حينما قالت مباشرة: أما إنه لا يمنعني الذي فعل بمحمد أخي أن أخبرك ما سمعت من رسول الله ﷺ سمعته في بيتي هذا.

يا للمواقف المشرِّفة الجليلة: هنا أعلنت أنها تجد في نفسها على عمرو بن العاص بسبب قتل أخيها محمد، فهي تؤكد أنَّها لا تملك أمام مشاعر الأخوة والقرابة إلا أن تشعر بالأسى لما حدث له ومع كل ذلك أعلنت أنَّ شعورها الشخصي ينحصر في زاوية صغيرةٍ من النفس تتلاشى أمام مساحة العدل والإنصاف فيها؛ ولذلك فهي ستذكر الحقَّ مؤكِّدة سماعه من رسول الله ﷺ، وهذا الحقّ الذي

ستذكره فيه بشارة لعمرو بن العاص، الذي أكَّد الرجل المصري أنه رفيق بهم مشفق عليهم. نعم إنها راوية منصفة أمينة، تحمل أمانة العلم الذي علَّمها إياه زوجها الحبيب ﷺ، ولهذا قالت بلا تردُّد:

سمعت رسول الله ﷺ يقول في بيتي هذا: «اللهم من وليَ من أمر أمتي شيئاً فَشَقَّ عليهم فاشقق عليه، ومن ولي من أمر أمتي شيئاً فرفق بهم فارفق به» يا لها من بشارة عظيمة يستبشر بها عمرو بن العاص، وكلُّ والٍ إلى أن تقوم الساعة مادام صاحب رفقٍ بالناس وشفقة عليهم.

هكذا تكون القلوب المؤمنة بالله عادلةً منصفةً بعيدة عن الجور والحَيْف.